

التعبير البياني في شعر أحمد سحنون

د. عبد الحفيظ بورديم

كلية الآداب واللغات / جامعة تلمسان

الجهاز المفاهيمي

البيان في العرف العربي هو الوضوح وضده العجمة. ومنه أن كل من لم يتكلم العربية فصيحة قيل عنه أعجمي، ولو أوتي حظا من بلاغة الكلام عاليا. وقد كان زياد الأعجم خطيبا بليغا، ولكن العرب كانت تتندر بلغة لسانه لأنه لا يجيد نطق الرءاء فتخرج من فيه غينا، فنبعت بينهم الأعجم.

لما استقلوا بهذا الفهم صارت فصاحة اللسان عندهم تفسيرا للوجود والكينونة معا. الكون كله إشارات ورموز واللسان هو الطريقة المثلى لاستئناسها. والعربية هي أقدر اللغات على النفاذ وراء ظواهر الأشياء، والإمساك بناصية المخبوء والمستتر. زعم العقاد بأن "الشعر لا يفنى إلا إذا فُتيت بواعثه وما بواعثه إلا محاسن الطبيعة وخوافها وخوارج النفس وأمانها".⁽¹⁾

لا يزال مثل هذا اليقين يستبد بالذات العربية منذ بدايات نشأتها الأولى، حتى استوت هوية ثقافية وحضارية مغايرة لما انتشر في الدنيا من هويات أخرى.

اختارت العرب الشعر وسيلتها المثلى لإثبات النبوغ الفردي والتفوق الجماعي. فالشعر حكمة متدفقة، والشعر عاطفة مندفعة، والشعر كلمة ملهمة: فيها من النغم انتظام التفاعيل وفيها من الجمال مجاز الدلالة وفيها من العذوبة روعة التصوير.

وكما فقدت أمم قدرتها على الاستمرار، صار العرب قاب قوسين من الردى. لأنهم فقدوا البيان⁽²⁾، فقدوا الوضوح. وأعتيتهم لعبة إخفاء الدلالة حتى ضاعت منهم معاييرها. لذلك كانت آية الشعراء بيانا يعيد الوعي إلى الشعر.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٣٧﴾﴾ الشعراء: ٣٣٤ - ٣٣٧⁽³⁾

لذلك نتخذ من هذه الورقة البحثية وسيلة لقراءة التعبير البياني في الشعر الجزائري، من خلال الاستئناس بالمتن الشعر الذي خلقه أحمد سحنون. وقد استعنا لانجاز ذلك بمقاربة قضيتين اثنتين هما:

- الاختيار اللفظي

- النسق التداولي

2/ الاختيار اللفظي

ترك أحمد سحنون اللهو وما كان لاهيا، وترك الافتخار بالذات المفردة، لأن انتماءه الكوني يثبت الأنا ويلغى تعاطف الأنا. قد يكون ذلك عزيزا على من ظن أن الفخر بالذات مقدم على القوم وإن كانوا معقد الفخر كله. يكفي أن نقرأ من شعر أحمد سحنون هذه الأبيات الثلاثة:

- واجعلوا الإيمان أقوى عِدةً تغنموا النصر على الباغي العتيد.
- قوة الإيمان لا ترهب ما حشد الطغيان من جيش عتيد.
- قوة الإيمان لا تعدها قوة النار ولا بأس الحديد.⁽⁴⁾
- يبدأ نظمها اللغوي بخطاب الأمر المفيد الوجوب متبوعاً بجواب الأمر المجزوم. وفي دلالة الابتداء بالفعل ما يوحي أن الشاعر يريد من مخاطبيه أن يحققوا في ذاتهم الفعل العظيم: فعل الإيمان.
- ثم يبيّن، وتلك عادة البيان، عليه الحقائق التي لا تتبدل مستعملاً طاقة الدلالة التي في الاسم. وأراد للاسم في البيتين التاليين أن يكون مبتدأ ظاهرة عليه علامة الرفع، وهو بعد مضاف إلى الإيمان مرة أخرى.
- الإيمان، ما بالها لفظة تتكرر مرات ثلاث في ثلاثة أبيات؟
- هل لمثل هذا الحضور دلالة ما؟
- ألم يكن في وسع الشاعر أن يختار غيرها من معجم اللسان؟
- حين نتبع زمنية الركن الاستعمالي للفظه الإيمان نكتشفها قرآنية. وليس لها قبل نزول القرآن استعمال.
- وحيث نتبع استعمالها السياقي في القرآن نجد أنها تأتي من حيث:
- المصدرية حمساً وأربعين مرة
- * ((الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل))⁽⁵⁾ .
- اشتقاقاً تسعاً وثمانين وسبع مائة مرة.
- أليس هذا عدداً ضخماً؟
- وحيث نتبع استعمالها السياقي من حيث:
- الفعلية: نجد أنها تأتي بإفراد فاعلها وجمع فاعلها
- ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ يَمَّا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ البقرة: ٢٨٥⁽⁶⁾
 - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ
- ﴿١١﴾ البروج: ١١⁽⁷⁾
- الاسمية: نجد أنها اسم فاعل بصيغة الإفراد وبصيغة الجمع
- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء: ١٣٤⁽⁸⁾
- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ المائدة: ٨٨⁽⁹⁾
- إن هذا الحضور النوعي للفظه واحدة تتألف مبانيها ومعانيها لتشكّل دلالة مركزية هي ذاتها تأسيس لتصور مميز للوجود والكون والإنسان.
- هل الإيمان معنى عقلي؟
- هل الإيمان معنى وجداني؟
- هل الإيمان معنى إنساني؟

ما حقيقة الإيمان ؟ ومن المؤمن ؟ ومن المؤمن به ؟
 ما أظن الشاعر الجاهلي خطرت بنفسه هذه القضايا.
 هي معان أسمى من أن تكون من خطرات الشعر والشعراء أو من مستتجات الفكر والمفكرين. إنها نفحات
 علوية تعجز الإنسان إعجازاً محبياً ولديداً. لم يكن إدراكها ممكناً لولا أن للكون معنى إلهياً في بدئه وفي محتته.
 الله الذي كان قبل أن يكون كون، خلق الخلق من أصغر ذرة إلى أعظم جرم. وجعل الملائكة مطهرين لا يعصون
 له أمراً مسبحات بالليل والنهار، ثم جعل الإنسان خليفة تجري عليه أحكام التكليف فمنهم المؤمن ومنهم دون ذلك.
 الإيمان هو هذا الاستحضار للعظمة الإلهية، وكلما أشرق القلب بما كلما صغرت في ناظره ما دون الله.
 وكلما ثبت المعنى بأن لا عظيم إلا الله، كلما تحققت في النفس أسباب السعادة. الإيمان هو "المنطلق الذي ينطلق منه
 الإنسان في كل سلوك يقوم به لتحقيق أي غرض دنيوياً كان أو آخروياً إذ الإيمان بمبادئ معينة كفيل
 بتسيير المرء وتوجيهه" (10).

3/ النسق التداولي

يستوي هذا كله ليصبح نسقاً معرفياً متكاملًا يرتضيه أحمد سحنون ويعتز به. لذلك فإن اختياره لكلمة
 الإيمان تخدم عنده البعد الوظيفي التداولي والبعد الوظيفي الجمالي.
 أما الوظيفي التداولي فمرده إلى المعاني الثلاث التي ساقها بإقرار شديد ويقين بالغ: إن الإيمان قوة معنوية
 مجاوزة لكل قوة مادية، تمد صاحبها بالثبات النفسي أمام أعنى الجيوش وأكثرها طغياناً، وهي قوة كفيلة بأن تهزم
 اجتماع النار والحديد.
 تكمن التداولية في أن الشاعر أراد للكلمة أن تحافظ على طاقاتها الدلالية دون أن يلبسها شيئاً من دواعي
 المجاز والانزياح. وبقي الإيمان كلمة قرآنية تستمد كل ظلالها من أفق الانتظار عند المتلقي لها.
 أما الجمالي فيكمن في القدرة البالغة على توظيف الكلمة في السياق الشعري. وهو سياق تزين بال تكرار
 وبالمقابلة. والتكرار للكلمة جعلها مثل خيط الحرير الذي يزين النسيج فلا تفتأ عينك ترتد إلى النظر إليه معجبة برقته
 ولونه. والمقابلة بين المعنوي والمادي في القوة من شأنه أن يبعث في النفس استقباحاً للمادي واستملاحاً للمعنوي.
 إذا تعانق التداولي والجمالي فالشاعر قد أنجز مثالية الشعر في مثل موقفه وهو تبليغ الدلالة للمخاطبين. وما
 المخاطبون إلا المجاهدون الذين عقدوا العزم على أن تحيا الجزائر.
 إن استثمار تلك الكلمة هو الطاقة الدافعة التي تعين المخاطب على خلع ثوب التردد، وتمنحه القدرة
 العجائبية على تحدي الطغيان مهما تكن دروعه وحديدته.
 تبين أن الإيمان معنى ثابت ومركزي في شعر أحمد سحنون. وما ذلك بغريب على شاعر لقي ابن باديس
 واعتنق معه مشروع الإصلاح. وكلاهما موقن أن جهود العاملين كلها غير قادرة على أن تغير شيئاً، لذلك ينبثق
 الإيمان دعوة لاستمداد القوة من الله.

فلنسمع بعض الابتهاال الجميل وقد ملأ الشاعر به فاه فملاً به الفضاء عزة واقتداراً:

رباه كن عوناً لنا وكن لنا مؤيداً

ابعث لنا ملائكة كيوم بلر مددا .

واجعل جيوش الظالمين المعتدين بددا . (11)

ولن يعجزنا أن نتلمس البناء النفسي للشاعر فهو رجل مؤمن بالله يدعو في ضراعة بالغة وتذلل جميل. والدعاء حركة قلب - مفعم بالثقة - نحو السماء فيها الاستعطاف والاسترحام والحب الكبير. وهل يدعى للملمات إلا من يحب ويوثق به.

يفعل ذلك وفي ذهنه يوم بدر، وقد كان فصلا بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر. ثم يتزل تلك الواقعة - وقد كانت قبل مئات السنين- على الواقع الجزائري ليمثل المجاهدين الجزائريين وكأنهم صحابة بدر، ويمثل الجيش الفرنسي وكأنهم شذاذ قريش وعتاقا. وليس أحب للمجاهدين من تشبيههم بصحابة بدر، وليس أقسى على الغاشمين من وصفهم بشذاذ الكافرين.

ثم يقرن الدعاء بطلب مدد من الملائكة مسومين "وقد شغل جبريل عليه السلام مجالا في شعر أحمد سحنون، كيف لا وهو الملك المقرب، وروح القدس والروح الأمين"⁽¹²⁾ والملائكة كلهم في نفس الشاعر مثال الطهر والصفاء. ويمثلهم كلما عنت ذكرى غزوة بدر. يقول في واحدة من قصائده يخلدها. ومن غريب أنه لا يصف ما رآه حواس الناس من قعقة للسيوف وضبح العاديات، إنه بصر الملائكة وجبريل قائدها تمتطي خيولا من بهاء تنير في الكافرين الذعر وتبشر المؤمنين بعاقبة الامر. يقول مثلا:

يا غزوة جبريل من جندها	يئس روح الخسوف والذعر
يسير في جيش عظيم من	الأملأك أهل السير والطهر .
قد امتطوا خيلا على أهبة	لسحق أهل الزيغ والكفر .
كي يطمئن المؤمنون إلى	أن لهم عاقبة الأمر. ⁽¹³⁾

فانظر إلى تأثر الشاعر بالقرآن حين تستعيد سورة الأنفال⁽¹⁴⁾ وفيها هذا العرض الرائع للحظة من لحظات الغيب في غزوة بدر. ولولا أن القرآن ذكر أن الملائكة حضرت -بأمر ربه- تثبت المؤمنين، لما أدرك ذلك أحد من البشر، ذلك أن البصر لا يعدو بحاله الحسي أن يكون محدودا حسيرا.

ولأن أحمد سحنون آمن بالقرآن فإن معانيه وصوره تتزل عليه حين يكتب شعرا ويفهم واقعة.

4/ خلاصات

قد تمكنا هذه المتابعة للمتن الشعري الذي أنجزه الشاعر أحمد سحنون مهتدين بالتعبير البياني إلى الخلوص بجملة نتائج:

1/ إن الشعر الجزائري، ممثلا في تجربة أحمد سحنون، حقق البيانية العالية التي مكنته من التعبير الهادئ والمطمئن أحيانا والغاضب الهادر أحيانا أخرى.

2/ إن مظهر البيانية يكمن في القدرة على الاختيار اللفظي، وهو اختيار لا يكشف رؤية العالم عند الشاعر فحسب، بل هو يحقق الكفاءة الشعرية حين تستخلص من المستعمل المعجمي ما يناسب الرؤية ثم إعادة إفراغها في الشكل الشعري، وذلك هو مطلب البيان الأول.

3/ إن مظهر البيانية التالي يرجع إلى تحقيق التداولية، وهو خاصية التذوق العربي الذي يجعل بين النص وقارته صلات القربى، على خلاف الدعاوى الحداثية التي أسقطت التداولية حين أغرقت التعبير الشعري بالغامض السديمي. والتداولية لم تكن خطابا تقريريا بقدر ما كانت تواصلا عجميا مع الأفق الثقافي.

- 4/ إن البيانية في مظهريها، الاختياري والتداولي، استقتت من النظم القرآني جمال اللفظ وشرف المعنى، وقد تجلت عند أحمد سحنون في اختيار لفظة الايمان، ثم في استدعاء الصورة المشكلة لمشهد المجاهدين والملائكة تمدهم كأنهم في بدر.
- 5/ هل يحتاج الشعر الجزائري إلى إعادة المتابعة النقدية وفق الرؤية البيانية حتى نستخلص منه روائعه فلا يعني عليها الزمن؟؟

الهوامش:

- (1) العقاد : مقدمة ديوان العقاد (ضمن المجموعة الكاملة) دار الكتاب اللبناني بيروت ط1، 1983 ج2 ص15.
- (2) - في سورة الرحمن (الرحمن. علم القرآن .خلق الإنسان. علمه البيان.)
- (3) الشعراء / 224-225-226 قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروي عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشعر ممثلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام).
- ينظر ، تفسير الطبري للآية المذكورة (ضمن برنامج القرآن الكريم) قرص الليزر / شركة صخر العالمية الإصدار 6.31/سنة 1996
- (4) - أحمد سحنون، الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب 1975 ص187
- (5) - آل عمران 173
- (6) - البقرة 285
- (7) العروج 11
- (8) النساء 124
- (9) المائدة 88
- (10) - محمد ناصر بو حجاج: أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ، ص 43.
- (11) - الديوان ص 230
- (12) - محمد ناصر بو حجاج، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ،رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر ص 117.
- (13) - الديوان، ص 211
- (14) - (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن قلوبكم وما النصر إلا من عند الله والله عزيز حكيم) الانفال 10